الإسلام في فرنسا، قراءة سوسيو-تاريخية.

Islam in France, a socio-cultural reading.

سعيدون زروقي *

جامعة وهران 2 (الجزائر)، zsaidoun31@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/10/22 تاريخ القبول: 2020/12/24 تاريخ النشر: 2020/12/30

ملخص:

يعتبر الإسلام في الغرب عموما وفي فرنسا على وجه الخصوص ظاهرة سوسيولوجية حديثة. ظهر هذا الدين مع وصول المهاجرين الأوائل الوافدين من شمال إفريقيا خاصة. بدأ الاهتمام بدراسة الإسلام داخل المجتمع الفرنسي بالنظر إلى التغير الذي حدث نتيجة نشوء أجيال جديدة من أبناء المهاجرين تحمل تمثلات إجتماعية مختلفة عن تمثلات المجتمع المضيف الذي يحمل قيم ومبادئ الجمهورية الفرنسية، الشيء الذي أحدث تحولا واضحا داخل التركيبة السوسيولوجية للمجتمع. هنا بدأ الحديث عن الإسلام والمسلمين وإسلام فرنسا كبديل عن إسلام الأجيال الجديدة. ميزت أغلب الدراسات في هذا السياق بين إسلام هادئ وبين إسلام اندفاعي مطالب وطائفي في بعض الأحيان تميز به شباب الأجيال الجديدة. كما أن معظم الشباب يتخذون من الإسلام هوية لهم مقابل الهوية الفرنسية، الشي الذي أزعج الكثير من الشخصيات السياسية والإعلامية حيث دفعهم للكلام عن مسألة فشل سياسة الاندماج.

كلمات مفتاحية: الإسلام.، الهوية.، علم اجتماع الإسلام.، الهجرة.، الشباب.، المجتمع الفرنسي.، فرنسا.

Abstract:

Islam in the West in general and in France in particular is a modern sociological phenomenon. This debt appeared as early immigrants from North Africa arrived, especially. Interest in studying Islam within French society began with the change that resulted from the emergence of new generations of immigrants with different social representations from the host society, which carries the values and principles of the French Republic, which has transformed the sociological structure of society. Here, talk about Islam, Muslims, and France's Islam has begun as an alternative to new generations. Most studies in this context

have distinguished between a quiet Islam and a sectarian, sometimes sectarian, Islam that characterizes young people of new generations. Most young men also take their identity from Islam in exchange for French identity, a thing that has bothers many political and media figures to talk about the failure of the integration policy.

Keywords: Islam; Identity; Sociology of Islam; Migration; Youth. French society; France.

*المؤلف المرسل

1- مقدمة:

نسلط الضوء في هذا المقال على أهم الإسهامات في حقل السوسيولوجيا الغربية وبالخصوص في فرنسا في موضوع الإسلام، حيث كان محل اهتمام الكثير من الباحثين وعلماء الاجتماع، إذ ارتبط هذا الدين بمجتمع المهاجرين الذين ومع استقرارهم في المجتمعات الغربية أصبحوا يشكلون جزءا هاما منها. وبالتالي أضحى يؤثر ويتأثر بالمجال العام، فبينما كان الإسلام يشمل فقط بعض الممارسات والطقوس في حدود العائلة، على غرار الصلاة في البيت والصوم خفية، تحول وأخذ شكلا آخرا أكثر وضوحا يمارس في العلن من قبل المهاجرين، خصوصا أبناءهم متحديين بذلك العلمانية التي تشكل أحد قيم الجمهورية الفرنسية. إنطلاقا من هذه المعطيات تبلورت لدينا إشكالية الدوافع الكامنة وراء دراسة الدين الإسلامي في فرنسا، ومن يمارسه وفق منطلقات سوسيولوجية وتاريخية، كيف تم إنشاء علم اجتماع خاص به، ألا وهو علم اجتماع الإسلام كتخصص فرعي داخل علم اجتماع الدين.

نحاول في هذا العمل أن نفهم كيف أخذ هذا الدين شكلا جديدا مختلفا عن دين المهاجرين الأوائل، وبدأ يظهر وفق عدة أشكال للتنظيم والمطالبة ذات الطابع الديني والثقافي من قبل أبناء هؤلاء المهاجرين. إن إنشاء الجمعيات وبناء المساجد في الكثير من المدن الفرنسية بالإضافة إلى تحقيق عدة مطالب لصالح المسلمين في هذا البلد شكل

تحولا نوعيا في المجتمع الفرنسي حيث أضحى الاعتراف بالهوية الإسلامية أمرا حتميا وبالتالي إعطائه وجودا شرعيا.

بعد ذلك نتطرق إلى إسلام هذه الأجيال من أبناء المهاجرين، وكيف أخذ طابعا طائفيا نظرا للظروف الصعبة التي ميزتها، وكذا تموقعها خارج المجتمع، لذلك لجأت إلى إسلام ذو طابع طائفي لاستعادة حقوقها، وإعادة الاعتبار لهويتها، حيث يسعى أفرادها إلى استدراك ما فات بالتشبث بالهوية الإسلامية تاركين جانبا الهوية الاجتماعية الفرنسية، وبالتالي، خلق مجتمع إسلامي داخل المجتمع الفرنسي لتفادي الاندماج. إن هؤلاء الشباب وبتعلقهم بالهوية الإسلامية يقصون مختلف الفوارق الإثنية والانقسامات الموجودة داخل الأحياء واضعين الإسلام وتعاليمه فوق الاعتبارات الأخرى. على صعيد آخر، ينشط الإسلام في فرنسا وفق عدة تيارات تختلف عن بعضها من ناحية شكل التنظيم والأهداف التي تسعى لتجسيدها.

2- **الإسلام كموضوع دراسة داخل حقل علم الاجتماع الفرنسي**: يتوقف بناء موضوع الدين كمادة سوسيولوجية على مدى التجربة الدينية التي عاشتها المجتمعات الغربية، أين عرف الدين مسارا اتسم بالتراجع على المستوى الاجتماعي، بينما كان يمثل مصدر السلطة والشرعية في المدينة، في هذا السياق، مال علماء الاجتماع إلى إعادة بناء هذه الحركة التي قادت الدين من مركز السلطة إلى هوامش المجتمع، أين انحصرت المظاهر الدينية عموما في الإطار الفردي.

إن ظهور الإسلام في هذا المجال يطرح تساؤلات إبستمولوجية ومنهجية متضمّنا بالخصوص ما إذا كان الإسلام قادرا أن يكون ضمن أو خارج الإطار النظري الموضوع من طرف علم الاجتماع من أجل دراسته داخل هذه المجتمعات. هذه الإشكالية طرحت بكثير من الحرص بأن الإسلام يبدي أكثر فأكثر علامات تدل على رغبته في الاستقرار النهائي في المجتمعات الغربية. بالإضافة إلى ذلك، فإن تجدّره يؤدي إلى أشكال للتعبير تقع خارج النموذج المهيمن على البحث السوسيولوجي في مجال الديانات وخارج المجالات المعتمدة

للتظاهرات الدينية في هذه المجتمعات التي تقيد الحقل الاجتماعي للدين. لقد كان الإسلام محل اهتمام الكثير من الباحثين وبالخصوص المستشرقين منهم، وكذلك في بعض جوانبه من طرف رواد علم اجتماع الدين على غرار *Marx* و *Weber*[1] ثم من طرف أتباعهم. إن صورة الإسلام تعد بالأحرى جامدة ومتجانسة رابطة ما هو زمني بما هو روحي، ما هو خاص بما هو عام، ما هو مقدس بما هو مدنس، عناصر تتميز بوضوح في المجتمع الغربي أين يؤسس الديني والسياسي حقلين اجتماعيين مستقلين نسبيا. إن "التخصصات والمؤسسات العلمية التي تحدد تقليديا الحقول الاجتماعية، تحاول احتواء هذا الموضوع الجديد في خطابها محاولة في نفس الوقت فرض خطابها على الساحة الاجتماعية كأكثر شرعية أو على الأقل أكثر ملائمة"[2]. ينطبق ذلك تماما على علم السياسة، حيث أن السيطرة على حقل دراسة الإسلام في فرنسا قد أخفى في الواقع البعد الداخلي للدين المتشكل من "أنظمة معاني متكاملة ضمن رموز تجعل من الدين دينا"[3]. يعني أنه من أجل استخدام الإسلام كفعل اجتماعي مثل أي دين آخر حاول*Leca* جاهدا بناء موضوع للإسلام في خضم هذا الميل للعلوم الاجتماعية نحو السياسي عندما يتعلق الأمر بدراسة الإسلام. إن الأهمية السوسيولوجية من موضوع الإسلام قد تسمح بإعادة النظر في طبيعة العلاقات التي تحافظ عليها هذه الأنظمة من المضامين المتكاملة مع المسارات الاجتماعية

1 O. Carré, *« A propos de Weber et l'islam »*, Archives de sciences sociales des religions (61). Janv-Mars 1986, p 139-152.

2 F. Dassetto, A. Bastenier, « Sciences sociales et islam transplanté : concepts et méthodes, questions à partir d'expérience de recherche ». in B. Etienne (dir), L'islam en France. CNRS 1990, p 73.

3 J. Leca, « l'islam, l'Etat et la société en France, de la difficulté de construire un objet de recherche et d'argumentation », in B. Etienne (dir). L'islam en France. CNRS 1990, p 48.

والنفسية بعكس "النماذج الأساسية" التي تنشرها استطلاعات الرأي التي تؤسّس علم السياسة أي تركز أكثر حسب الكاتب على "الأشكال والمضامين الدينية لتعبئة سياسية"[4].

بالنسبة إلى كل من *Bastenier* و *Dassetto* يجب تحليل الإسلام في الغرب كفعل ديني بكل ما تحمله كلمة دين من معنى في المجتمع الغربي، أي "كنظام ثقافي رمزي واجتماعي محدّد وخاص داخل المجتمع المدني ومتميز عن السياسي"[5]. يتعلق الأمر في هذا الإطار بما إذا كانت العلمنة التي تؤطر الديني في المجتمعات الغربية صالحة كذلك بالنسبة للإسلام في الغرب الذي جلب من المجتمعات الأصلية. أو بالعكس يتساءل هاذان الكاتبان قائلان: أولم يكن الإسلام في الغرب بصدد إعادة تشكيل الروابط الجماعية التي تراخت في الهجرة أملا في "إعادة تأسيس المجتمع الكلي؟" أمام هذه الإشكاليات وهذه الفرضيات، يقترح محمد أركون في أبحاثه حول الإسلام، ممارسة أخرى للفكر وينطلق في حركة تفكيك هادفا إلى إخضاع الإسلام إلى تساؤلات العقل النقدي، قراءة للموروث الإسلامي بأدوات نظرية ومنهجية حديثة وحوار في إطار ما بين الثقافات، بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية حيث أضحت اليوم جد ضرورية حسب المفكر، وذلك لغرض إجلاء سوء الفهم المتبادل وتوجيه صورة الإسلام في الهجرة. أيضا، حسب أركون يوجد فوارق ثقافية، مؤسساتية، قانونية، اقتصادية واجتماعية كبيرة تفصل في أواخر هذا القرن هذين العالمين ذوي القيم، المفاخر والأمل الذين نسميهما عموما "إسلام" و"غرب": تسميتان تحجبان وتكتمان داخل اللامفكر فيه *(L'impensé)* وكذا نزاع تاريخي ضخم، قضايا الثقافة والحضارة، إقصاء استراتيجيات سياسية وممارسات تربوية. حتى للأسف برامج بحوث خاصة بالعلوم الاجتماعية كما أنها ممارسة في مجال الهيمنة في عالمنا المقحم في نظام العولمة[6]. حسب

4 Ibid. p 48.

5 F. Dassetto. A. Bastenier, op. cit, p 82.

6 M. Arkoun, *« La laïcité et le dialogue interreligieux »*. in J. Boissonnat, M. Bon, Semaines sociales. XXIIe session des sciences sociales de France tenue à Issy-les

أركون، "من الضروري الحذر من الهيمنة الممارسة من طرف الإبستمية[7] الغربية المعاصرة"[8] التي ترجع الإسلام في اللامفكر فيه خال من أي تناسق سوسيولوجي ولكن أيضا من خطاب إسلامولوجي متطور بفكر إسلامي كلاسيكي. إن دراسة الإسلام حسب أركون تستلزم جردا شاملا وموّسعا لأهم التعابير في الإسلام، والعمل على إعادة بناء مصدرها الاجتماعي والتاريخي، وصف مضامينها وكذا تحديد وظائفها. إنه جرد ينبغي أن يبدأ بوصف وتحليل اللّغات المكتوبة والمنطوقة، السلوكات الطقوسية، الممارسات الاقتصادية والسياسية، إبداعات فنية...إلخ. هذه التعابير اليومية للإسلام تصنف في ثلاثة حقول: ديني، سياسي، وثقافي ضمنها نستطيع استخلاص عدة عوامل اجتماعية منطوية فيها بهدف الحصول على فوائد مادية ورمزية التي تعكسها هذه التعابير.

من جهة أخرى، هناك باحثون آخرون يدعون إلى إدراج الدراسة ضمن منظور مقارن وتعددي بما في ذلك ظهور حركات دينية جديدة تدعو الآخرين إلى إعادة تعريف الديني.

"إن تجاوز إغراء هذه الخصوصية يتم بوضع علم اجتماع إسلام لتحقيق إنتاج خاص، تخصّص داخل علم اجتماع الدين وحده قادر على إيجاد بعيدا عن الخصوصيات، المفارقات وأوجه التشابه، بالإضافة إلى الاختلاف وتعبيرات مختلفة للواقع الديني"[9]. في هذه الحالة، يمر تأسيس الديني عن طريق التركيبة الحرّة لأربعة أبعاد خصوصية للهوية،

Moulineaux et intitulée *: Les migrants, défis et richesse pour notre société*. Paris. Bayard/Centurion 1998, p 176.

7 تشير إبستمية حقبة زمنية إلى نمط تفكير، كلام وتصور للعالم بحيث يتوسع ليشمل كل الثقافة. يصنف M. Foucault في مؤلفي: (L'archéologie du savoir, Les mots et les choses) ثلاث إبستميات متثالية: إبستمية النهضة، إبستمية العصر الكلاسيكي وإبستمية العصر الحديث.

8 M. Arkoun, *« La connaissance de l'islam : problèmes épistémologiques »*. Encyclopédie Universalis France S.A. Paris 1996. Corpus 12, p 676.

9 L. Babès, *L'islam positif, la religion des jeunes musulmans de France.* Paris. Les éditions de l'atelier/Editions ouvrières. 1997, p 38.

حيث يتبلور التنظيم المؤسستي داخلها شيئا فشيئا أي البعد الجماعي، البعد الأخلاقي، البعد الثقافي والبعد العاطفي[10].

هذا التشخيص يبيّن مختلف المواقف التي تهتم بها البحوث المنجزة حول الإسلام. هذه البحوث تسعى لتحليل بعض جوانب تطور هذا الدين ضمن الهجرة. إن حضور الإسلام في فرنسا يتجلى اليوم تحت أشكال مختلفة بسبب عدم التجانس: وطنية، إثنية، سوسيولوجية وجيلية للسكان المسلمين في هذا البلد. إن الأشكال الجديدة للتعبير التي تميز الإسلام في فرنسا تفسر أيضا بإدراج الدين الإسلامي ضمن التنوع الديني والثقافي في إطار العلمانية. إنها في الأخير نتيجة لعدة عوامل دينية التي تحاول الانتظام حول الديني من أجل إعطاء نوع من الشرعية والتمثل في نفس الوقت، تجاه السلطات العمومية، تجاه المسلمين أنفسهم وكذلك تجاه سلطات البلد الأصل. إن تدفّق الهجرة هو الذي أدى بالإسلام إلى اقتحام المجتمع الفرنسي مع الاستقرار النهائي شيئا فشيئا للسكان ذوي الأصول المسلمة في هذا البلد. إن اهتمام الباحثين بدراسة هؤلاء السكان المهاجرين دفعهم بالتالي إلى دراسة الإسلام الذي أصبح حدثا بارزا لدى هؤلاء السكان قبل أن يصبح مصدر تساؤل بالنسبة للمجتمع الذي يستوجب فيه على علماء الاجتماع تقديم أجوبة[11].

لقد حاولت هذه الدراسات والبحوث إعادة بناء الظروف الخاصة بظهور هذا الدين الجديد في الفضاء العام مع الأخذ بعين الاعتبار البعد السوسيولوجي والتاريخي.

يرتبط الإسلام في فرنسا بأجيال المهاجرين الذين وبالعكس من أولادهم تميزوا بإسلام تقليدي هادئ إنه إسلام أفراد غالبيتهم متزوجون استقروا في فرنسا منذ زمن طويل تحصل بعضهم على الجنسية الفرنسية بينما يحمل غالبية أولادهم الجنسية الفرنسية. لا يتردد هؤلاء في المطالبة بفتح مدارس قرآنية لأولادهم بالإضافة إلى المطالبة بتوفير

10 D. Hervieu-Léger, *Le pèlerin et le converti. La religion en mouvement*. Paris, Flammarion. 1999. p 211-212.

11 F. Dassetto, A. Bastenier, op cit. p 82.

قاعات للصلاة عكس ما كانوا عليه في السابق. إنهم بالإضافة إلى ذلك يسهرون على تلقين أولادهم الثقافة العربية الإسلامية وغيرها... ممّا يقودهم في بعض الأحيان إلى أخذ صفة الدفاع تجاه النموذج الثقافي للمجتمع المضيف، ومن جهة أخرى، صفة التفتح والمرونة في تأويل الرموز الدينية وفي ممارسة العبادات[12]. على الأقل يختلف هذا على ما كانوا عليه في السابق حيث تميزت ممارستهم بالسرية والتحفظ فاكتفوا بممارسة شعائرهم في بيوتهم بعيدا عن الأنظار لذلك يعتبر *A. Boyer* "أن ذلك كان بسبب إخلاص سوسيولوجي وليس بسبب قناعة بحيث لم ينخرط هؤلاء المهاجرون الأوائل في أي ممارسة بافتخار ولم يبدوا أية دعوة أو تبشير بدينهم، فهذه السرية تدل على أنهم لم يكن لديهم مطالبة حقيقية بالدين وبالتالي يحتل انتمائهم للإسلام الدرجة الثانية مقارنة بالانتماء الوطني"[13].

إلاّ أن الأجيال الناشئة في فرنسا تصل إلى أنماط الاستيعاب بسهولة كبيرة، إنها تتجاوز محيطها حيث تدرج أشكالا جديدة للتدين (مطالعة الكتب الدينية، استماع المحاضرات والدروس الدينية، حضور حلقات الذكر في المساجد، حضور الملتقيات الفكرية ذات البعد الدعوي الديني التي تنظم من حين لآخر وغير ذلك) الشيء الذي يسمح لهم بتجديد فهمهم للإسلام وللممارسة الدينية. وبذلك لا ينحصر الدين عندها في الممارسة الفردية على غرار الصلاة في البيت وصيام شهر رمضان وتفادي شرب الخمر وأكل لحم الخنزير إلى آخره، إذ يسعى أفرادها للالتزام أكثر فأكثر بتعاليم وقيم دينهم. على صعيد آخر، يسعى البعض إلى إدراج الإسلام ضمن عملية علمنة. في الواقع، هذه الفئة من أبناء المهاجرين في مواجهتها لمجتمع ومؤسسات علمانية، تظهر علاقة أكثر فردية وشخصية بالدين تاركة البعد الجماعي للإسلام كونه متأخرا بالنسبة للمجتمع. هذه العلمنة بالنسبة للإسلام في فرنسا تظهر من خلال التردّد الديني الذي يميز خصوصا أعضاء الجيل المتوسط والكبير

12 A. Lamchichi, Islam et musulmans de France, pluralisme, laicité et citoyenneté. Paris, L'Harmattan 1990. p79.

13 A. Boyer, *L'Islam en France.* Paris, PUF Vendôme 1998.. p 79.

من أبناء المهاجرين الجزائريين في فرنسا. وبالنتيجة، فإن مستوى الممارسة الدينية[14] لديهم ضئيل باستثناء أفراد الجيل الشاب.

قائمة المراجع

Carré. O, *« A propos de Weber et l'islam »*, Archives de sciences sociales des religions (61). Janv-Mars 1986.

Dassetto. F, Bastenier. A, *« Sciences sociales et islam transplanté : concepts et méthodes, questions à partir d'expérience de recherche »*. in B. Etienne (dir), *L'islam en France*. CNRS 1990.

Leca. J, *« l'islam, l'Etat et la société en France, de la difficulté de construire un objet de recherche et d'argumentation »*, in, B. Etienne (dir). L'islam en France. CNRS 1990.

Arkoun. M, *« La laïcité et le dialogue interreligieux ».* in J. Boissonnat, M. Bon, Semaines sociales. XXIIe session des sciences sociales de France tenue à Issy-les Moulineaux et intitulée *: Les migrants, défis et richesse pour notre société*. Paris. Bayard/Centurion 1998.

M. Arkoun*, « La connaissance de l'islam : problèmes épistémologiques ».* Encyclopédie Universalis France S.A. Paris 1996. Corpus 12.

14 نقصد بالممارسة الدينية إقامة الصلوات الخمسة، صوم شهر رمضان، الزكاة بالإضافة إلى النية في أداء فريضة الحج.

Babès. L, *L'islam positif, la religion des jeunes musulmans de France.* Paris. Les éditions de l'atelier/Editions ouvrières. 1997.

Hervieu-Léger. D, *Le pèlerin et le converti. La religion en mouvement*. Paris, Flammarion. 1999.

Lamchichi. A, *Islam et musulmans de France, pluralisme, laicité et citoyenneté*. Paris, L'Harmattan 1990.

Boyer. A*, L'Islam en France.* Paris, PUF Vendôme 1998.